(٩١) سورة الشمس مكية
وآياتها خمس عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ قبل الخوض فى التفسير لابد من مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود من هذه السورة الترغيب فى الطاعات والتحذير من المعاصى .

واعلم أنه تعالى ينبه عباده دائماً بأن يذكر فى القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب ، فتكون الدواعى إلى تأمله أقوى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد عرفت أن جماعة من أهل الأصول قالوا : التقدير ورب الشمس ورب سائر ماذكره إلى تمام القسم ، واحتج قوم على بطلان هذا المذاهب ، فقالوا إن فى جملة هذا القسم قوله (والسماء وما بناها) وذلك هو الله تعالى فيلزم أن يكون المراد ، ورب السماء وربها وذلك كالمتناقض ، أجاب القاضى عنه بأن قوله (وما بناها) لا يجوز أن يكون المراد منه هو الله تعالى ، لأن مالا تستعمل فى خالق السماء إلا على ضرب من المجاز ، ولأنه لا يجوز منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه ، ولأنه تعالى لا يكاد يذكر مع غيره على هذا الوجه ، فإذاً لابد من التأويل وهو أن (ما) مع مابعده فى حكم المصدر فيكون التقدير : والسماء وبنائها ، اعترض صاحب الكشاف عليه فقال لو كان الأمر على هذا الوجه لزم من عطف قوله (فألهمها) عليه فساد النظم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القراء مختلفون فى فواصل هذه السورة وما أشبهها نحو (والليل إذا يغشى ، والضحى والليل إذا سجى) فقرءوها تارة بالإمالة وتارة بالتفخيم وتارة بعضها بالإمالة وبعضها بالتفخيم ، قال الفراء بكسر ضحاها ، والآيات التى بعدها وإن كان أصل بعضها الواو نحو : تلاها ، وطحاها ودحاها ، فكذلك أيضاً . فإنه لما ابتدئت السورة بحرف الياء أتبعها بما هو من الواو لأن الألف المنقلبة عن الواو قد توافق المنقلبة عن الياء ، ألا ترى أن تلوت وطحوت ونحوهما قد يجوز فى أفعالها أن تنقلب إلى الياء نحو : تلى ودحى ، فلما حصلت هذه الموافقة استجاوزا إمالته

www.besturdubooks.wordpress.com

كما استجازوا إمالة ماكان من الياء ، وأما وجه من ترك الإمالة مطلقاً فهو أن كثيراً من العرب لا يميلون هذه الألفات ولا ينحون فيها نحو الياء ، ويقوى ترك الإمالة للألف أن الواو فى موسر منقلبة عن الياء ، والياء فى ميقات وميزان منقلبة عن الواو ولم يلزم من ذلك أن يحصل فيه ما يدل على ذلك الانقلاب ، فكذا ههنا ينبغى أن تترك الألف غير ممالة ولا ينحى بها نحو الياء ، وأما إمالة البعض وترك إمالة البعض ،كما فعله حمزة فحسن أيضاً ، وذلك لأن الألف إنما تمال نحو الياء لتدل على الياء إذا كان انقلابها عن الياء ولم يكن فى تلاها وطحاها ودحاها ألف منقلبة عن الياء إنما هى منقلبة عن الواو بدلالة تلوت ودحوت .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أن الله تعالى قد أقسم بسبعة أشياء إلى قوله (قد أفلح) وهو جواب القسم ، قال الزجاج : المعنى لقد أفلح ، لكن اللام حذفت لأن الكلام طال فصار طوله عوضاً منها .

قوله تعالى (والشمس وضحاها) ذكر المفسرون فى ضحاها ثلاثة أقوال ، قال مجاهد والكلبى ضوؤها ، وقال قتادة هو النهار كله ، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة ، وقال مقاتل هو حر الشمس ، وتقرير ذلك بحسب اللغة أن نقول ، قال الليث : الضحو ارتفاع النهار ، والضحى فويق ذلك ، والضحاء ممدوداً امتد النهار ، وقرب أن ينتصف . وقال أبو الهيثم : الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض وأصله الضحى ، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها وقالوا ضح ، فالضحى هو ضوء الشمس ونورها ثم سمى به الوقت الذى تشرق فيه الشمس على ما فى قوله تعالى (إلا عشية أوضحاها) فمن قال من المفسرين فى ضحاها ضوؤها فهو على الأصل ، وكذا من قال هو النهار كله ، لأن جميع النهار هو من نور الشمس ، ومن قال فى الضحى إنه حر الشمس فلأن حرها ونورها متلازمان ، فمتى اشتد حرها فقد اشتد ضوؤها وبالعكس ، وهذا أضعف الأقوال ، واعلم أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح ، فإن أهل العالم كانوا كالأموات فى الليل ، فلما ظهر أثر الصبح فى المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة ، فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل ، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة ، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها ، وقوله (والقمر إذا تلاها) قال الليث : تلا يتلو إذا تبع شيئاً وفى كون القمر تالياً وجوه (أحدها) بقاء القمر طالعاً عند غروب الشمس ، وذلك إنما يكون فى النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس ، فإذا القمر يتبعها فى الإضاءة ، وهو قول عطاء عن ابن عباس (وثانيها) أن الشمس إذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال فى الغروب ، وهو قول قتادة والكلبى (وثالثها) قال الفراء المراد من هذا التلو هو أن القمر يأخذ الضوء من الشمس يقال فلان يتبع فلاناً فى كذا أى يأخذ منه (ورابعها) قال الزجاج تلاها حين استدار وكمل ، فكأنه يتلو الشمس فى الضياء والنور يعنى إذا كمل ضوؤه فصار كالقائم مقام الشمس فى الإنارة ، وذلك فى الليالى

www.besturdubooks.wordpress.com

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾

البيض (وخامسها) أنه يتلوها فى كبر الجرم بحسب الحس ، وفى ارتباط مصالح هذا العالم بحركته ، ولقد ظهر فى علم النجوم أن بينهما من المناسبة ما ليس بين الشمس وبين غيرها .

قوله تعالى : ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ معنى التجلية الإظهار ، والكشف والضمير فى جلاها إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان (أحدهما) وهو قول الزجاج أنه عائد إلى الشمس وذلك لأن النهار عبارة عن نور الشمس . فكلما كان النهار أجلى ظهوراً كانت الشمس أجلى ظهوراً ، لأن قوة الأثر وكماله تدل على قوة المؤثر ، فكان النهار يبرز الشمس ويظهرها ، كقوله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) أى لا يخرجها (الثانى) وهو قول الجمهور - أنه عائد إلى الظلمة ، أو إلى الدنيا ، أو إلى الأرض . وإن لم يجر لها ذكر ، يقولون : أصبحت باردة يريدون الغداة ، وأرسلت يريدون السماء .

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ يعنى يغشى الليل الشمس فيزيل ضوءها ، وهذه الآية تقوى القول الأول فى الآية التى قبلها من وجهين (الأول) أنه لما جعل الليل يغشىء الشمس ويزيل ضوءها حسن أن يقال النهار يجليها ، على ضد ما ذكر فى الليل (والثانى) أن الضمير فى يغشاها للشمس بلا خلاف ، فكذا فى جلاها يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير فى الفواصل من أول السورة إلى ههنا للشمس ، قال القفال : وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا بالشمس فى الحقيقة لكن بحسب أوصاف أربعة (أولها) الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار . وذلك هو الوقت الذى يكمل فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش ، ومنها تلو القمر لها وأخذه الضوء عنها ، ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجىء النهار ، ومنها وجود خلاف ذلك بمجىء الليل ، ومن تأمل قليلا فى عظمة الشمس ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهى ، والتركب من الأجزاء انتقل منه إلى عظمة خالقها ، فسبحانه ما أعظم شأنه .

قوله تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ فيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أن الذى ذكره صاحب الكشاف من أن (ما) ههنا لو كانت مصدرية لكان عطف (فألهمها) عليه يوجب فساد النظم حق ، والذى ذكره القاضى من أنه لو كان هذا قسما بخالق السماء ، لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس ، فهو إشكال جيد ، والذى يخطر ببالى فى (الجواب عنه) أن أعظم المحسوسات هو الشمس ، فذكرها سبحانه مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها ، ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ووصفها بصفات ثلاثة وهى تدبيره سبحانه للسماء والأرض والمركبات ، ونبه على المركبات بذكر أشرفها وهى النفس ، والغرض من هذا الترتيب هو أن يتوافق العقل والحس على عظمة جرم الشمس ثم يحتج العقل الساذج بالشمس ، بل بجميع السماويات والأرضيات والمركبات على إثبات مبدىء لها ، فحينئذ يحظى العقل ههنا بإدراك

www.besturdubooks.wordpress.com

وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾

جلال الله وعظمته على ما يليق به ، والحس لا ينازعه فيه . فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء كبرياء الصمدية ، فسبحان من عظمت حكمته وكملت كلمته .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفائدة فى قوله (والسماء وما بناها) ؟ (الجواب) أنه سبحانه لما وصف الشمس بالصفات الأربعة الدالة على عظمتها ، أتبعه ببيان ما يدل على حدوثها وحدوث جميع الأجرام السماوية ، فنبه بهذه الآية على تلك الدلالة ، وذلك لأن الشمس والسماء متناهية ، وكل متناه فإنه مختص بمقدار معين . مع أنه كان يجوز فى العقل وجود ما هو أعظم منه ، وما هو أصغر منه . فاختصاص الشمس وسائر السماويات بالمقدار المعين ، لابد وأن يكون لتقدير مقدر وتدبير مدبر ، وكما أن بانى البيت يبنيه بحسب مشيئته ، فكذا مدبر الشمس وسائر السماويات قدرها بحسب مشيئته ، فقوله (وما بناها) كالتنبيه على هذه الدقيقة الدالة على حدوث الشمس وسائر السماويات .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال (وما بناها) ولم يقل ومن بناها ؟ (الجواب) من وجهين (الأول) أن المراد هو الإشارة إلى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء وذلك الشيء العظيم القادر الذى بناها ، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذى سواها (والثانى) أن ما تستعمل فى موضع من كقوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) والاعتماد على الأول .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم ذكر فى تعريف ذات الله تعالى هذه الأشياء الثلاثة وهى السماء والأرض والنفس ؟ (والجواب) لأن الاستدلال على الغائب لا يمكن إلا بالشاهد ، والشاهد ليس إلا العالم الجسمانى وهو قسمان بسيط ومركب ، والبسيط قسمان : العلوية وإليه الإشارة بقوله (والسماء) والسفلية وإليه الإشارة بقوله (والأرض) والمركب هو أقسام ، وأشرفها ذوات الأنفس وإليه الإشارة بقوله (ونفس وماسواها) .

قوله تعالى : ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما أخر هذا عن قوله (والسماء وما بناها) لقوله (والأرض بعد ذلك دحاها) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الليث : الطحو كالدحو وهو البسط ، وإبدال الطاء من الدال جائز ، والمعنى وسعها . قال عطاء والكلبى : بسطها على الماء .

قوله تعالى : ﴿ ونفس وما سوها ﴾ إن حملنا النفس على الجسد ، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح ، وإن حملناها على القوة المدبرة ، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكورة ، على ما يشهد به علم النفس (١) فإن قيل لم نكرت النفس ؟ قلنا فيه وجهان (أحدهما) أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس ، وهى النفس القدسية النبوية ، وذلك لأن كل كثرة ، فلابد فيها من واحد يكون هو الرئيس ، فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان ، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان ، والإنسان أنواع وأصناف ورائيسها النبي . والأنبياء كانوا كثيرين ، فلا بد وأن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق ، فقوله (ونفس) إشارة إلى تلك النفس التى هى رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات (الثانى) أن يريد كل نفس ، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور فى قوله (علمت نفس ما أحضرت) وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله على ما قال بعد ذكر بعض الحيوانات (ويخلق مالا تعلمون) ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفصل المقوم لماهيته ، والخواص اللازمة لذلك الفصل ، فمن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض ، فضلا عن التوغل فى بحار أسرار الله سبحانه .

أما قوله تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فالمعنى المحصل فيه وجهان (الأول) أن إلهام الفجور والتقوى ، إفهامها وإعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ماشاء منهما ، وهو كقوله (وهديناه النجدين) وهذا تأويل مطابق لمذاهب المعتزلة ، قالوا ويدل عليه قوله بعد ذلك (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) وهذا الوجه مروى عن ابن عباس وعن جمع من أكابر المفسرين (والوجه الثانى) أنه تعالى ألهم المؤمن المتقى تقواه وألهم الكافر فجوره ، قال سعيد بن جبير : ألزمها فجورها وتقواها ، وقال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها بالفجور ، واختار الزجاج والواحدى ذلك ، قال الواحدى التعليم والتعريف والتبيين ، غير والإلهام غير ، فإن الإلهام هو أن يوقع الله فى قلب العبد شيئاً ، وإذا أوقع فى قلبه شيئاً فقد ألزمه إياه . وأصل معنى الإلهام من قولهم : لهم الشيء ، والتهمه إذا ابتلعه ، وألهمته ذلك الشيء أى أبلغته ، وهذا هو الأصل ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى فى قلب العبد ، لأنه كالإبلاغ ، فالتفسير الموافق لهذا الأصل قول ابن زيد ، وهو صريح فى أن الله تعالى خالق فى المؤمن تقواه ، وفى الكافر فجوره ، وأما التمسك بقوله (قد أفلح من زكاها) فضعيف لأن المروى عن سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبى أن المعنى قد أفلحت وسعدت نفس زكاها الله تعالى وأصلحها وطهرها ، والمعنى وفقها للطاعة ، هذا آخر كلام الواحدى وهو تام . وأقول قد ذكرنا أن الآيات الثلاثة ذكرت للدلالة على كونه سبحانه مدبراً للأجسام العلوية والسفلية البسيطة والمركبة ، فههنا لم يبق شيء مما فى عالم المحسوسات إلا وقد ثبت بمقتضى ذلك التنبيه أنه واقع بتخليقه وتدبيره ، بقى شيء

(١) يريد بعلم النفس هنا : علم التشريح ، لا علم النفس بالمعنى الذى نعرفه الآن وإن كان يتناول ما ذكره .

www.besturdubooks.wordpress.com

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

واحد يختلج فى القلب أنه هل هو بقضائه وقدره وهو الأفعال الحيوانية الاختيارية ، فنبه سبحانه بقوله (فألهمها فجورها وتقواها) على أن ذلك أيضاً منه وبه وبقضائه وقدره ، وحينئذ ثبت أن كل ما سوى الله فهو واقع بقضائه وقدره . وداخل تحت إيجاده وتصرفه . ثم الذى يدل عقلا على أن المراد من قوله (فألهمها فجورها وتقواها) هو الخذلان والتوفيق ما ذكرنا مراراً أن الأفعال الاختيارية موقوفة على حصول الاختيارات ، لحصولها إن كان لاعن فاعل فقداستغنى المحدث عن الفاعل ، وفيه نفى الصانع ، وإن كان عن فاعل هو العبد لزم التسلسل ، وإن كان عن الله فهو المقصود . وأيضاً فليجرب العاقل نفسه . فانه ربما كان الإنسان غافلا عن شيء فتقع صورته فى قلبه دفعة ، ويترتب على وقوع تلك الصورة فى القلب ميل إليه ، ويترتب على ذلك الميل حركة الأعضاء وصدور الفعل ، وذلك يفيد القطع بأن المراد من قوله (فألهمها) ماذكرناه لاما ذكره المعتزلة .

قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فاعلم أن التزكية عبارة عن التطهير أو عن الإنماء ، وفى الآية قولان (أحدهما) أنه قد أدرك مطلوبه من زكى نفسه بأن طهرها من الذنوب بفعل الطاعة ومجانبة المعصية (والثانى) قد أفلح من زكاها الله ، وقبل القاضى هذا التأويل ، وقال المراد منه أن الله حكم بتزكيتها وسماها بذلك ، كما يقال فى العرف : إن فلاناً يزكى فلاناً ، ثم قال والأول أقرب ، لأن ذكر النفس قد تقدم ظاهراً ، فرد الضمير عليه أولى من رده على ما هو فى حكم المذكور لا أنه مذكور .

واعلم أنا قد دللنا بالبرهان القاطع أن المراد بألهمها ما ذكرناه فوجب حمل اللفظ عليه . وأما قوله بأن هذا محمول على الحكم والتسمية فهو ضعيف ، لأن بناء التفعيلات على التكوين ، ثم إن سلمنا ذلك لكن ما حكم الله به يمتنع تغيره ، لأن تغير المحكوم به يستلزم تغير الحكم من الصدق إلى الكذب ، وتغير العلم إلى الجهل ، وذلك محال ، والمفضى إلى المحال محال . أما قوله ذكر النفس قد تقدم ، قلنا هذا بالعكس أولى ، فإن أهل اللغة اتفقوا على أن عود الضمير إلى الأقرب أولى من عوده إلى الأبعد ، وقوله (فألهمها) أقرب إلى قوله (ما) منه إلى قوله (ونفس) فكان الترجيح لما ذكرناه ، ومما يؤكد هذا التأويل ما رواه الواحدى فى البسيط عن سعيد ابن أبى هلال أنه عليه السلام كان إذا قرأ (قد أفلح من زكاها) وقف وقال « اللهم آت نفسى تقواها ، أنت وليها وأنت مولاها ، وزكها أنت خير من زكاها » .

قوله تعالى : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ فقالوا (دساها) أصله دسسها من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء فى الشيء ، فأبدلت إحدى السينات ياء ، فأصل دسى دسس ، كما أن أصل تقضى البازى تقضض البازى ، وكما قالوا البيت والأصل لبيت ، وملبى والأصل ملبب ، ثم نقول : أما

www.besturdubooks.wordpress.com

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾

المعتزلة فذكروا وجوهاً توافق قولهم (أحدها) أن أهل الصلاح يظهرون أنفسهم ، وأهل الفسق يخفون أنفسهم ويدسونها فى المواضع الخفية ، كما أن أجواد العرب ينزلون الربا حتى تشتهر أماكنهم ويقصدهم المحتاجون ، ويوقدون النيران بالليل للطارقين . وأما اللئام فإنهم يخفون أماكنهم عن الطالبين (وثانيها) (خاب من دساها) أى دس نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم (وثالثها) (من دساها) فى المعاصى حتى انغمس فيها (ورابعها) (من دساها) من دس فى نفسه الفجور ، وذلك بسبب مواظبته عليها ومجالسته مع أهلها (وخامسها) أن من أعرض عن الطاعات واشتغل بالمعاصى صار خاملا متروكا منسياً ، فصار كالشيء المدسوس فى الاختفاء والخمول . وأما أصحابنا فقالوا : المعنى خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى وأغواها وأفجرها وأبطلها وأهلكها ، هذه ألفاظهم فى تفسير (دساها) قال الواحدى رحمه الله . فكأنه سبحانه أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره وخسار من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ قال الفراء الطغيان والطغوى مصدران إلا أن الطغوى أشبه برؤوس الآيات فاختير لذلك وهو كالدعوى من الدعاء وفى التفسير وجهان : (أحدهما) أنها فعلت التكذيب بطغيانها ، كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى ، والمعنى أن طغيانهم حملهم على التكذيب به هذا هو القول المشهور (والثانى) أن الطغوى اسم لعذابهم الذى أهلكوا به ، والمعنى كذبت بعذابها أى لم يصدقوا رسولهم فيما أنذرهم به من العذاب ، وهذا لا يبعد لأن معنى الطغيان فى اللغة مجاوزة القدر المعتاد فيجوز أن يسمى العذاب الذى جاءهم طغوى لأنه كان صيحة مجاوزة للقدر المعتاد أو يكون التقدير كذبت بما أوعدت به من العذاب ذى الطغوى ويدل على هذا التأويل قوله تعالى (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى بالعذاب الذى حل بها ، ثم قال (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) فسمى ما أهلكوا به من العذاب طاغية .

قوله تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث مطاوع بعث يقال بعثت فلاناً على الأمر فانبعث له ، والمعنى أنه كذبت ثمود بسبب طغيانهم حين انبعث أشقاها وهو عاقر الناقة وفيه قولان (أحدهما) أنه شخص معين واسمه قدار بن سالف ويضرب به المثل يقال : أشأم من قدار ، وهو أشقى الأولين بفتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والثانى) يجوز أن يكونوا جماعة ، وإنما جاء على لفظ الوحدان لتسويتك فى أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث تقول : هذان أفضل الناس وهؤلاء أفضلهم ، وهذا يتأكد بقوله (فكذبوه فعقروها) وكان يجوز أن يقال أشقوها كما يقال أفاضلهم .

www.besturdubooks.wordpress.com

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الرسول صالح عليه السلام (ناقة الله) أى أنه أشار إليه لما هموا بعقرها وبلغه ما عزموا عليه ، وقال لهم هى (ناقة الله) وآيته الدالة على توحيده وعلى نبوتى ، فاحذروا أن تقوموا عليها بسوء ، واحذروا أيضاً أن تمنعوها من سقياها ، وقد بينا فى مواضع من هذا الكتاب أنه كان لها شرب يوم ولهم ولمواشيهم شرب يوم ، وكانوا يستضرون بذلك فى أمر مواشيهم ، فهموا بعقرها ، وكان صالح عليه السلام يحذرهم حالا بعد حال من عذاب ينزل بهم إن أقدموا على ذلك ، وكانت هذه الحالة متصورة فى نفوسهم ، فاقتصر على أن قال لهم (ناقة الله وسقياها) لأن هذه الإشارة كافية مع الأمور المتقدمة التى ذكرناها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (ناقة الله) نصب على التحذير ، كقولك الأسد الأسد ، والصبى الصبى بإضمار ذروا عقرها واحذروا سقياها ، فلا تمنعوها عنها ، ولا تستأثروا بها عليها .

ثم بين تعالى أن القوم لم يمتنعوا عن تكذيب صالح ، وعن عقر الناقة بسبب العذاب الذى أنذرهم الله تعالى به وهو المراد بقوله ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ ثم يجوز أن يكون المباشر للعقر واحداً وهو قدار ، فيضاف الفعل إليه بالمباشرة ، كما قال (فتعاطى فعقر) ويضاف الفعل إلى الجماعة لرضاهم بما فعل ذلك الواحد . قال قتادة : ذكر لنا أنه أبى أن يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، وهو قول أكثر المفسرين . وقال الفراء . قيل إنهما كانا اثنين .

قوله تعالى : ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ فاعلم أن فى الدمدمة وجوها (أحدها) قال الزجاج : معنى دمدم أطبق عليهم العذاب ، يقال دمدمت على الشىء إذا أطبقت عليه ، ويقال ناقة مدمومة ، أى قد ألبسها الشحم ، فإذا كررت الإطباق قلت دمدمت عليه . قال الواحدى : الدم فى اللغة اللطخ ، ويقال للشىء السمين كأنما دم بالشحم دماً ، فجعل الزجاج دمدم من هذا الحرف على التضعيف نحو كبكبوا وبابه ، فعلى هذا معنى دمدم عليهم ، أطبق عليهم العذاب وعمهم كالشىء الذى يلطخ به من جميع الجوانب (الوجه الثانى) تقول للشىء يدفن دمدمت عليه ، أى سويت عليه ، فيجوز أن يكون معنى فدمدم عليهم ، فسوى عليهم الأرض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التراب (الوجه الثالث) قال ابن الأنبارى : دمدم غضب ، والدمدمة الكلام الذى يزعج الرجل (ورابعها) دمدم عليهم أرجف الأرض بهم رواه ثعلب عن ابن الأعرابى ، وهو قول الفراء ، أما قوله (فسواها) يحتمل وجهين ، وذلك لأنا إن فسرنا الدمدمة بالإطباق والعموم ، كان معنى (فسوى)

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

الدمدمة عليهم وعمهم بها ، وذلك أن هلاكهم كان بصيحة جبريل عليه السلام ، وتلك الصيحة أهلكتهم جميعاً ، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم ، وإن فسرناها بالتسوية ، كان المراد فسوى عليهم الأرض .

قوله تعالى : ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ ففيه وجوه (أولها) أنه كناية عن الرب تعالى إذ هو أقرب المذكورات ، ثم اختلفوا فقال بعضهم لا يخاف تبعة فى العاقبة إذ العقبى والعافية سواء ، كأنه بين أنه تعالى يفعل ذلك بحق . وكل ما فعل ما يكون حكمة وحقاً فإنه لايخاف عاقبة فعله . وقال بعضهم ذكر ذلك لاعلى وجه التحقيق لكن على وجه التحقير لهذا الفعل ، أى هو أهون من أن تخشى فيه عاقبة ، والله تعالى يجل أن يوصف بذلك ، ومنهم من قال المراد منه التنبيه على أنه بالغ فى التعذيب ، فإن كل ملك يخشى عاقبة ، فإنه يتق بعض الاتقاء ، والله تعالى لما لم يخف شيئاً من العواقب ، لا جرم ما اتقى شيئاً (وثانيها) أنه كناية عن صالح الذى هو الرسول أى ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذى ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه . لو حاول محاول أن يؤذيه لأجل ذلك (وثالثها) المراد أن ذلك الأشقى الذى هو أحيمر ثمود . فيما أقدم من عقر الناقة (لا يخاف عقباها) وهذه الآية وإن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير فى حكم المتقدم ، كأنه قال (إذ انبعث أشقاها ، ولا يخاف عقباها) والمراد بذلك ، أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف البتة ، فنسب فى ذلك إلى الجهل والحمق ، وفى قراءة النبى عليه السلام (ولم يخف) وفى مصاحف أهل المدينة والشام (فلا يخاف) والله أعلم ، روى أن صالحاً لما وعدهم العذاب بعد ثلاث ، قال التسعة الذين عقروا الناقة . هلموا فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً فأعجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته . فأتوه ليبيتوه فدمغتهم الملائكة بالحجار ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه لبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه قد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً زدتم ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا وجوههم مصفرة فأيقنوا بالعذاب فطلبوا صالحاً ليقتلوه فهرب صالح والتجأ إلى سيد بعض بطون ثمود وكان مشركاً فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه ثم شغلهم عنه ما نزل بهم من العذاب ، فهذا هو قوله (ولا يخاف عقباها) والله أعلم ، وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❁

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة «الشمس»

وهي مكِّيةٌ باتِّفاقٍ، وهي خَمْسَ عَشْرةَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾

قال مجاهد: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ أي: ضوئِها وإشْراقِها. وهو قَسَمٌ ثانٍ. وأضاف الضُّحَى إلى الشمس؛ لأنه إنَّما يكون بارتفاعِ الشمس. وقال قتادةُ: نَهارها[٤]. السُّدِّيُّ:

---

(١) إصلاح المنطق ص١٨٠ ، وأنشده ابن عباس لنافع بن الأزرق، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ عن الطستي.

(٢) السبعة ص٦٨٦ ، والتيسير ص٢٢٣ ، والنشر ١/ ٣٩٥ عن أبي عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف. والمشهور عن الكسائي: «موصدة» بغير همز.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٧ . قال السمين في الدر المصون ١١/ ١٢ : وكأنه لم يحفظ عن شيخه إلا تركَ الهمز، مع حِفْظِ حفص إياه (يعني الهمز) عنه.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٤ ، ووقع في (م): بهاؤها.

حرّها[١]. وروى الضحاك عن ابن عباس: «وضحاها»، قال: جَعَلَ فيها الضوءَ وجَعَلَها حارَّةً[٢].

وقال اليزيديُّ: هو انبساطُها. وقيل: ما ظَهَر بها من كلِّ مخلوقٍ، فيكون القَسَمُ بها وبمخلوقاتِ الأرض كلِّها. حكاه الماوردِيّ[٣].

والضُّحَى: مؤنثةٌ. يقال: ارتفعت الضُّحى فوق الصُّخور. وقد تُذَكَّر. فَمَن أنَّث ذهب إلى أنها جمعُ ضَحْوَةٍ. ومَن ذكَّر ذهب إلى أنه اسمٌ على فُعَل، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ. وهو ظرفٌ غيرُ متمكِّنٍ مثل سَحَر. تقول: لقِيتُه ضحًى وضُحَى؛ إذا أردتَ به ضُحا يومِك لم تنوِّنه[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: الضُّحى هو النهار، كقول قتادة[٦]. والمعروفُ عند العرب: أنَّ الضُّحى إذا طلعت الشمسُ وبُعَيد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحَاء بالمدِّ. ومَن قال: الضُّحى: النهارُ كلُّه، فذلك لدوامِ نورِ الشمس. ومَن قال: إنه نورُ الشمسِ أو حرُّها، فنورُ الشمسِ لا يكون إلَّا مع حرِّ الشمس. وقد استدلَّ مَن قال: إنَّ الضحى حرُّ الشمس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي: لا يؤذيك الحرّ.

وقال المبرِّد: أصلُ الضُّحَى من الضّحِّ، وهو نورُ الشمسِ، والألفُ مقلوبةٌ من الحاءِ الثانية. تقول: ضَحوَة وضَحَوات[٧] وضُحًى، فالواوُ من ضَحْوَة مقلوبةٌ عن

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨١ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الحاكم ٢/ ٥٢٤ من طريق مجاهد عن ابن عباس: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ قال: ضوءها.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ٢٨١ .

(٤) الصحاح (ضحا)، وينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وتفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٤ ، وسلف قريباً.

(٧) بعدها في (م) و(ي): وضحوات. وكل اسم واحدة فَعْلة فإنَّ جَمعه على فَعَلات بفتح العين، فإن كان نعتاً فإنك تدع ثانيه ساكناً، مثل: ضَخمْة، تجمعها: ضَخْمات، وربما سكنت العين في الأسماء، كما قال الشاعر: فتستريح النفس من زَفْراتها. ينظر تفسير الطبري ٣/ ٣٢ .

الحاء الثانية(١)، والألفُ في ضُحا مقلوبةٌ عن الواو.

وقال أبو الهيثم: الضِّح: نقيض الظِّلِّ، وهو نورُ الشمسِ على وجه الأرض، وأصلُه: الضِّحْيُ، فاستَثْقَلوا الياءَ مع سكونِ الحاءِ، فقَلَبوها ألفاً(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾

أي: تَبِعَها، وذلك إذا سقطت رُئي الهلال. يقال: تَلَوْتُ فلاناً: إذا تَبِعته. قال قتادة: إنَّما ذلك ليلةَ الهلال، إذا سَقَطت الشمس رُئي الهلال(٣).

وقال ابن زيد: إذا غَرَبت الشمسُ في النصف الأول من الشهر، تلاها القمرُ بالطُّلوع، وفي آخِرِ الشهرِ يتلُوها بالغروب(٤).

الفرَّاء: «تلاها»: أخذ منها. يذهبُ إلى أنَّ القمر يأخذُ من ضوء الشمس(٥). وقال قومٌ: «والقمرِ إذا تَلاَها» حين استوى واستدار، فكان مِثلَها في الضياء والنور؛ وقاله الزجَّاج(٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾

أي: كَشَفَها. فقال قومٌ: جلَّى الظُّلْمةَ، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ، كما تقول: أضْحَتْ باردةً، تريد: أَضْحَتْ غَداتُنا باردةً. وهذا قولُ الفرّاءِ(٧) والكلبيِّ وغيرِهما. وقال قومٌ:

---

(١) قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٧٨ لعله مختلَقٌ عليه؛ لأن المبرد أجلُّ من أن يذهب إلى هذا، وهاتان مادتان مختلفتان لا تشتقُّ إحداهما من الأخرى.

(٢) كذا في النسخ، ومثله في تفسير الرازي ٣١/ ١٩٠ ، والذي في تهذيب اللغة ٣/ ٣٩٨ عن أبي الهيثم: ... فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فثقلوها؛ قالوا: ضِحّ. ومثلُه العبدُ القِنُّ، وأصله: قِنْي من القِنْية.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٦ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٢ بلفظ: في النصف الأول يتلوها، وتكون أمامه وهو وراءها، وإذا كان في النصف الأخير كان هو أمامها وهي وراءه، ونحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٣٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٣١ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦ .

الضمير في «جَلاَّها» للشمس، والمعنى: أنه يُبينُ بضوئه جرمَها. ومنه قولُ قيس بنِ الخَطِيم:

تَجَلَّت لنا كالشَّمسِ تحتَ غَمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ[1]

وقيل: جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر؛ لاستتاره ليلاً وانتشاره نهاراً[2]. وقيل: جَلَّى الدنيا. وقيل: جَلَّى الأرض، وإنْ لم يَجْرِ لها[3] ذِكْرٌ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] على ما تقدَّم آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾

أي: يغشَى الشمس، فيَذهَبُ بَضوْئها عند سقوطها؛ قاله مجاهدٌ وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلَم، فتُظلم الآفاق. فالكنايةُ تَرْجِعُ إلى غيرِ مذكور.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾

أي: وبنيانها. فـ«ما» مَصْدَرِيةٌ، كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس:٢٧] أي: بغفران ربِّي؛ قاله قتادة، واختاره المبرِّد.

وقيل: المعنى: ومَن بناها؛ قاله الحسن ومجاهد[4]؛ وهو اختيارُ الطَّبَرِيِّ[5]. أي: ومَن خَلَقَها ورَفَعَها، وهو الله تعالى. وحُكِي عن أهل الحجاز: سُبحان ما سَبَّحت له، أي: سبحان مَنْ سَبَّحت له[6].

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٨، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ١٤٦، وديوان المعاني ١/ ٢٢٩، والحماسة البصرية ٢/ ٨٥، واللسان (حجب). وورد البيت في ديوان مجنون ليلى ص٧٥. قال صاحب اللسان: حاجب الشمس: ناحيةٌ منها.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٢.

(٣) في (د) و(ز) و(ي): لهما.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٢، وزاد المسير ٩/ ١٣٩.

(٥) في تفسيره ٢٤/ ٤٣٧، قال: وبناؤه إياها تصييره إياها للأرض سقفاً.

(٦) ينظر ما سلف ٦/ ٢٦، وما سيأتي ص٣٢٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝﴾

أي: وطَحْوِها. وقيل: ومَن طحاها؛ على ما ذكرناه آنفاً. أي: بَسَطَها؛ كذا قال عامَّةُ المفسِّرين، مثل دحاها. قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها واحدٌ[١]، أي: بَسَطَها من كل جانب. والطَّحْو: البَسْطُ؛ طَحَا يطحُو طحْواً، وطَحَى يَطحَى طَحْياً. وطَحَيْتُ: اضطجعتُ؛ عن أبي عمرو[٢].

وعن ابن عباس: طحاها: قَسَمها[٣]. وقيل: خَلَقها؛ قال الشاعر:

ومـا تَـدْرِي جـذيـمـة مَـن طَـحَـاهـا ... ولا مَـنْ سـاكِـنُ الـعَـرْشِ الـرَّفـيـعِ[٤]

الماوَرْديُّ[٥]: ويحتمل أنه ما خرج منها من نباتٍ وعيونٍ وكنوز؛ لأنه حياةٌ لِمَا خُلِق عليها.

ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمرِ الطَّاحِي، أي: المُشرِف المُشْرِق المرتفع[٦]. قال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض. يقال: ما أدري أين طَحَا! ويقال: طحا به قلبُه: إذا ذهب به في كلِّ شيء؛ قال علقمة:

طَحَـا بـكَ قَـلْـبٌ فـي الـحِسَـانِ طَـروبُ ... بُـعـيْـدَ الـشَّـبـابِ عَـصْـرَ حـانَ مَـشـيـبُ[٧]

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝﴾

قيل: المعنى: وتَسْوِيَتِها. «فما»: بمعنى المصدر. وقيل: المعنى: ومَن سَوَّاها، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٤٣٩ بنحوه.

(٢) ذكره عنه الجوهري في الصحاح (طحا).

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤٠ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٨٣ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٢٨٣ .

(٦) تهذيب اللغة ٥/ ١٨٤ .

(٧) ديوان علقمة الفحل ص٣٣ ، والصحاح (طحا) والكلام منه. قال الأعلم شارح الديوان: قوله: طحا بك قلب، أي: اتَّسع بك في حب الحِسان، وذَهب بك كلَّ مذهب.

وفي النفس قولان: أحدهما آدمُ. الثاني: كلُّ نفسٍ منفوسة. وسوَّى: بمعنى هيَّأ. وقال مجاهد: سوَّاها: سَوَّى خَلْقَها وعَدَّل[١].

وهذه الأسماءُ كلُّها مجرورةٌ على القَسَم؛ أَقسمَ جلَّ ثناؤه بخَلْقِه لِمَا فيه من عجائب الصَّنْعةِ الدالَّةِ عليه.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أي: عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابنُ أبي نَجِيح عن مجاهد[٢]. أي: عرَّفها طريقَ الفجورِ والتقوى؛ وقاله ابن عباس[٣]. وعن مجاهدٍ أيضاً: عَرَّفها الطاعةَ والمعصية.

وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعَبْدِهِ خيراً، أَلْهمَه الخيرَ فَعَمِل به، وإذا أراد به السوءَ، أَلْهمَه الشرَّ فعمِل به.

وقال الفرَّاء[٤]: «فألهمها»، قال: عَرَّفها طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: أَلْهَمَ المؤمنَ المتَّقيَ تقواه، وألْهَمَ الفاجرَ فُجورَه[٥].

وعن سعيد عن قتادة قال: بَيَّن لها فُجورَها وتقواها[٦]. والمعنى متقارب.

ورُوِي عن أبي هريرةَ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فقال:

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤١.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٠-٤٤١، والوسيط ٤/ ٤٩٥، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٢ ولفظه: علَّمها الطاعة والمعصية، وفي رواية: بيَّن لها طريق الخير والشر. وفي رواية: عرَّفها ما تأتي وما تتقي.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٦.

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ١٩٣ دون نسبة.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤١.

«اللهمَّ آتِ نفسي تَقْواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكّاها، أنت وَليُّها ومَولاها»[1].

ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآيةَ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ رفع صوته بها، وقال: «اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها، وأنت خيرُ مَن زَكّاها»[2].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي الأسود الدِّيْليِّ[3] قال: قال لي عِمران بنُ حصين: أرأيتَ ما يعملُ الناسُ اليومَ، ويَكْدَحون فيه، أشيءٌ قُضِي عليهم ومَضَى عليهم من قَدَرِ ما سَبَق، أو فيما يُسْتَقْبَلون به ممَّا أتاهم به نبيُّهم، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهم؟ فقلت: بل شيءٌ قُضِي عليهم، ومَضى عليهم. قال: فقال: أفَلا يكونُ ظُلماً؟ قال: ففزِعْتُ من ذلك فَزَعاً شديداً، وقلت: كلُّ شيءٍ خَلْقُ الله ومِلْكُ يَدِه، فلا يُسألُ عمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسألون. فقال لي: يرحمُكَ الله! إنِّي لم أُرِدْ بما سألتُك إلَّا لأَحْزِرَ عقلكَ، إنَّ رجلين من مُزَينة أتَيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسولَ الله، أرأيتَ ما يعملُ الناسُ اليومَ ويَكْدَحون فيه، أشيءٌ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم مِن قَدَرٍ قد سَبَق، أو فيما يُستقبَلون به ممّا أتاهم به نبيُّهم، وثَبتَتِ الحجةُ عليهم؟ فقال: «لا، بل شيءٌ قُضِي عليهم ومَضَى فيهم، وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾»[4]. والفجورُ والتقوى: مصدران في موضعِ المفعولِ به.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جوابُ القَسَم، بمعنى: لقد أفْلَح. قال

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٨١)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وفي إسناده يعقوب بن حميد المدني وهو ضعيف، وعبد الله بن عبد الله الأموي وهو مجهول.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٨٤، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. قال ابن كثير: وجويبر هذا هو ابن سعيد متروك الحديث، والضحاك لم يلقَ ابن عباس. اهـ. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١١٩١) بإسناد آخر عن ابن عباس به، وفيه ابن لهيعة وهو سيءُ الحفظ.

(٣) في (م): الدؤلي. قال الحافظ في التقريب: الدِّيْلي بكسر المهملة وسكون التحتانية، ويقال: الدُّؤَلي بالضم بعدها همزة مفتوحة، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٥٠)، وهو عند أحمد (١٩٩٣٦).

الزجّاج: اللامُ حُذِفَتْ لأنَّ الكلام طال، فصار طولُه عِوضاً منها[١].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، أي: والشمسِ وكذا وكذا لَتُبْعَثُنَّ.

الزمخشريُّ: تقديرُه: لَيُدَمْدِمنَّ الله عليهم، أي: على أهلِ مكة، لتكذيبهم رسولَ الله ﷺ، كما دَمْدَم على ثمود؛ لأنهم كذَّبوا صالحاً. وأمَّا «قد أفلح من زكَّاها» فكلامٌ تابعٌ لقوله[٢]: «فألهَمَها فجورَها وتقواها»، على سبيل الاستِطْرادِ، وليس من جواب القَسَمِ في شيء.

وقيل: هو على التقديم والتأخير بغيرِ حذفٍ، والمعنى: قد أَفْلَحَ مَن زَكَّاها، وقد خاب مَن دَسَّاها، والشمسِ وضحاها.

﴿أَفۡلَحَ﴾ فاز ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: مَن زكَّى اللهُ نفسَه بالطاعة ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: خَسِرتْ نفسٌ دَسَّها الله عزَّ وجلَّ بالمعصية. وقال ابن عباس: خابت نفسٌ أضَلَّها الله وأَغْواها[٣].

وقيل: أفلحَ مَن زكَّى نفسَه بطاعة الله وصالحِ الأعمال، وخاب مَن دسَّ نفسَه في المعاصي؛ قاله قتادةُ وغيره[٤].

وأصلُ الزكاة: النموُّ والزيادةُ، ومنه: زكا الزرع: إذا كَثُر رَيْعُه، ومنه تزكيةُ القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعُه بالتعديل وذِكْرِ الجميل. وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل سورةِ البقرة مستوفًى[٥].

فمصْطَنِعُ المعروفِ والمبادِرُ إلى أعمال البِرِّ، شَهَر نفسَه ورفعَها. وكانت أجوادُ

---

(١) زاد المسير ٩/ ١٤١ ، ولم نقف على هذا الكلام في معاني القرآن للزجاج، وذكره ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٨ دون نسبة، ثم قال: والاختيار عندنا أن يكون جواب القسم محذوفاً لبيان معناه، يراد به: والشمس وضحاها لقد سعد أهل الطاعة وشقي أهل المعصية، فدل على المحذوف: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

(٢) قبلها في (م): لأوله، والمثبت والنسخ الخطية، والكشاف ٤/ ٢٥٩ .

(٣) الوسيط ٤/ ٤٩٧ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٤٤٥ بلفظ: قد خاب مَن دسَّ الله نَفْسَه فأضلَّه.

(٤) أخرجه عن قتادة بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٦ ، والطبري ٢٤/ ٤٤٤ و٤٤٦ .

(٥) ٢/ ٢٣ .

العربِ تنزلُ الرُّبا وارتفاعَ الأرضِ؛ ليَشْتَهِر مكانُها للمُعْتَفِين[١]، وتُوقِدُ النارَ في الليل للطَّارِقين. وكانت اللئامُ تنزلُ الأوْلاجَ والأطرافَ والأهْضامَ[٢]، ليَخْفَى مكانُها عن الطَّالِبين. فأولئك عَلَّوْا أنفسَهم وزَكَّوْها، وهؤلاء أخْفَوْا أنفسَهم ودَسّوها. وكذا الفاجِرُ أبداً خَفِيُّ المكان، زَمِرُ المروءةِ[٣]، غامِضُ الشَّخصِ، ناكِسُ الرأسِ بركوبِ المعاصي.

وقيل: دسَّاها: أغواها؛ قال:

وأنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْراً فأصبحَتْ ... حلائلُهُ منه أرامِلَ ضُيَّعا[٤]

قال أهلُ اللغة: والأصل: دسَّسَها، من التدسيس، وهو إخفاءُ الشيءِ في الشيء، فأُبدلتْ سِينُه ياءً، كما يقال: قَصَّيْتُ أظفاري؛ وأصلهُ: قَصَّصْتُ أظفاري. ومثلُه قولهم في تَقَضَّضَ: تَقَضَّى[٥]. وقال ابن الأعرابيِّ: «وقدْ خَابَ من دَسَّاها» أي: دسَّ نفسَه في جملةِ الصالحين وليس منهم[٦].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بطُغْيانها، وهو خروجُها عن الحدِّ في

---

(١) المعتفي: الضيف، وكل طالب فضل أو رزق. القاموس (عفو).

(٢) الأولاج: جمع وَلَجة: كهف تستتر فيه المارة من مطر وغيره، ومَعْطِفُ الوادي. والأهضام: جمع هَضْم، وهو المطمئن من الأرض، وبطن الوادي. القاموس (ولج) و(هضم).

(٣) أي: قليل المروءة. القاموس (زمر).

(٤) جمهرة اللغة ٣/ ٢٤٢، وتهذيب اللغة ١٣/ ٤١، والنكت والعيون ٦/ ٢٨٤، واللسان (دسا)، ووقع في التهذيب واللسان: نساؤهم منهم، بدل: حلائله منه. وفي النكت: حلائلهم فيهم. قال صاحب اللسان: عمرو قبيلة. وقال ابن دريد عن البيت: زعم أبو حاتم أنه مصنوع.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٧، وللزجاج ٥/ ٣٣٢-٣٣٣، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٥٣٠ وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨١ و١٣/ ٤١، والصحاح (دسا).

(٦) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨١.

العصيان؛ قاله مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما.

وعن ابن عباس «بِطَغْواها» أي: بعذابها الذي وُعِدَتْ به. قال: وكان اسم العذابِ الذي جاءها: الطَّغْوى؛ لأنه طَغَى عليهم.

وقال محمد بن كعب: «بِطغواها» بأَجْمَعِها[١].

وقيل: هو مصدرٌ، وخرج على هذا المخرج لأنَّه أَشْكَلُ برؤوسِ الآي[٢].

وقيل: الأصلُ: بطَغْياها، إلَّا أنَّ «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياءِ أُبدِلَتْ في الاسم واواً، لِيُفصَل بينَ الاسمِ والوصف[٣].

وقراءةُ العامَّة بفتح الطَّاء. وقرأ الحسن والجَحْدري وحماد بنُ سلمة بضم الطاء، على أنَّه مصدر كالرُّجْعَى والحُسْنى وشِبْهِهما في المصادر[٤]. وقيل: هما لغتان.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أي: نهض. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ لعَقْرِ الناقة. واسمُه: قُدَار بنُ سالِف، وقد مضى في «الأعراف»[٥] بيانُ هذا. وهل كان واحداً أو جماعةً. وفي البخاريِّ عن عبد الله بن زَمَعةَ أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يخطُب، وذَكَر الناقةَ والذي عَقَرها، فقال رسول الله ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارِمٌ، منيعٌ في رَهْطِه مثلُ أبي زَمَعةَ» وذَكَر الحديث. خرَّجه مسلم أيضاً[٦].

وروى الضحَّاك عن عليٍّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «أَتَدْري مَن أشقَى الأوَّلِينَ» قلتُ: الله ورسولُه أَعْلَم. قال: «عاقرُ الناقةِ». قال: «أَتَدْري مَن أَشْقَى الآخِرين» قلتُ: الله

---

(١) أخرج هذه الأخبار الطبري ٢٤/ ٤٤٧-٤٤٨ .

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٧ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٤٨ ، وقال الفراء: ألا ترى أنه قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠] ومعناه: آخر دعائهم.

(٣) يعني: أنهم يقرُّون ياء فَعْلَى بالفتح صفةً نحو: امرأة خَزْيَا وصَدْيا، ويقلبونها في الاسم نحو: تقوى. ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٣ ، والكشاف ٤/ ٢٥٩ ، والدر المصون ١١/ ٢٣ .

(٤) المحتسب ٢/ ٣٦٣ ، والكشاف ٤/ ٢٥٩ ، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧٤ .

(٥) ٩/ ٢٧٠-٢٧١ .

(٦) صحيح البخاري (٤٩٤٢)، وصحيح مسلم (٢٨٥٥) وهو عند أحمد (١٦٢٢٢)، وسلف ٩/ ٢٧٠ .

ورسولُه أعلم. قال: «قاتِلُكَ»[١].

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني صالحاً ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ «ناقةَ» منصوبٌ على التحذير؛ كقولك: الأسدَ الأسدَ، والصبيَّ الصبيَّ، والحِذارَ الحِذارَ. أي: احذَروا ناقةَ الله، أي: عقْرَها. وقيل: ذَرُوا ناقةَ الله، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: ذَرُوها وشِرْبَها. وقد مضى في سورة الشعراء[٢] بيانُه والحمد للهِ. وأيضاً في سورة «اقتربت الساعة»[٣]. فإنَّهم لمَّا اقترحوا الناقةَ، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شِرْبَ يومٍ من بئرهم، ولها شِرب يومٍ مكانَ ذلك، فشقَّ ذلك عليهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذَّبوا صالحاً عليه السلامُ في قوله لهم: إنَّكم تُعَذَّبونَ إنْ عَقَرْتُموها. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عَقَرَها الأشقى، وأُضيفَ إلى الكلِّ لأنهم رَضُوا بفعله. وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنه لم يعقرها حتى تابَعَه[٤] صغيرُهم وكبيرهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم[٥].

وقال الفرَّاء[٦]: عَقَرَها اثنان، والعربُ تقولُ: هذان أفضلُ الناسِ، وهذان خيرُ الناسِ، وهذه المرأةُ أشْقَى القومِ، فلهذا لم يَقُلْ: أَشْقَياها.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: أَهْلَكَهُم وأطْبقَ عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفرُ والتكذيبُ والعَقْر. وروى الضحاكُ عن ابن عباس قال: «دَمْدم

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٩٥٣)، وروي بإسناد آخر عن علي ﷺ بنحوه عند عبد بن حميد في المنتخب (٩٢)، وأبي يعلى (٥٦٩)، والطبراني في الكبير (١٧٣). وله شاهد من حديث صهيب ﷺ عند أبي يعلى (٤٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٣١١). وآخر من حديث جابر بن سمرة ﷺ عند الطبراني في الكبير (٢٠٣٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٣٥ . وثالث من حديث عمار ﷺ عند أحمد (١٨٣٢١). وينظر مجمع الزوائد ٩/ ١٣٦-١٣٧ .

(٢) عند تفسير الآية (١٥٤) منها.

(٣) عند تفسير الآيتان (٢٧) و(٢٨) منها.

(٤) في (د): بايعه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٥٠ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٨ .

عليهم»قال: دَمَّر عَلَيْهم ربُّهم بذنبهم[١]، أي: بجُرْمهم. وقال الفرَّاء[٢]: «دَمْدم» أي: أَرْجَفَ.

وحقيقةُ الدَّمْدمةِ: تَضْعيفُ العذابِ وترديدُه. ويقال: دَمَمْتُ[٣] على الشيء، أي: أطْبقْت عليه، ودَمَم[٤] عليه القبرَ: أطْبقَه. وناقةٌ مدمومةٌ: أُلْبِسَها الشَّحمُ. فإذا كرَّرْتَ الإطباقَ قلتَ: دَمْدَمْتُ.

والدمدمةُ: إهلاكٌ باستئصالٍ؛ قاله المؤرِّج[٥]. وفي «الصِّحاح»: ودَمْدَمْتُ الشيءَ: إذا ألْزقته بالأرضِ وطَحْطَحْته. ودَمْدَمَ الله عليهم، أي: أهْلَكَهم[٦].

القُشَيرِيُّ: وقيل: دَمْدَمتُ على الميِّتِ الترابَ، أي: سَوَّيْتُ عليه. فقولُه: «فدَمْدَمَ عليهم» أي: أهْلَكهم، فجعلهم تحتَ التراب، «فَسَوَّاها» أي: سَوَّى عليهم الأرضَ. وعلى الأولِ: «فسوَّاها»، أي: فسوَّى الدَّمدمةَ والإهلاكَ عليهم. وذلك أنَّ الصيحةَ أهلكتهم، فأَتتْ على صغيرهم وكبيرهم.

وقال ابن الأنباريِّ: دَمْدَمَ، أي: غَضِب. والدمدمةُ: الكلامُ الذي يزعجُ الرجلَ[٧]. وقال بعض اللغويين: الدمدمةُ: الإدامةُ؛ تقول العربُ: ناقةٌ مُدْمومَةٌ[٨]، أي: سمينة.

وقيل: «فسوَّاها» أي: فسوَّى الأمَّةَ في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وَضِيعهم وشَريفهم، ذَكَرهم وأُنْثاهم.

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٤ عن عطاء ومقاتل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٣) في (د) و(ظ): دمدمت، والمثبت من كتاب الغريبين للهروي (دمم)، والكلام منه.

(٤) في (د) و(ظ): ودمدم، والمثبت من الغريبين.

(٥) الوسيط ٤/ ٥٠٠، وزاد المسير ٩/ ١٤٣.

(٦) الصحاح (دمدم).

(٧) تهذيب اللغة ١٤/ ٨١.

(٨) في (د) و(م): مدمدمة.

وقرأ ابن الزُّبير: «فَدهْدَم»(١)، وهما لغتان، كما يقال: امتُقِع لونُه وانْتُقِع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾

أي: فعل الله ذلك بهم غيرَ خائفٍ أنْ تَلْحَقه تَبِعةُ الدَّمدمةِ من أحَدٍ؛ قاله ابنُ عباسٍ والحسن وقتادة ومجاهد(٢). والهاءُ في «عُقْباها» تَرْجعُ إلى الفعلة، كقوله: «مَن اغْتَسلَ يومَ الجمعة فبها ونعمتْ»(٣) أي: بالفِعْلةِ والخَصْلَة.

وقال السدِّيُّ والضحَّاك والكلبيُّ: ترجع إلى العاقِر، أي: لم يَخَفِ الذي عَقَرها عُقبَى ما صَنَع(٤). وقاله ابن عباس أيضاً. وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، مجازهُ: إذِ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقباها(٥).

وقيل: لا يخافُ رسول اللهِ صالحٌ عاقبةَ إهلاكِ قومِه، ولا يخشى ضرراً يعودُ عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجَّاه الله تعالى حين أهْلَكَهم(٦).

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر: «فلا» بالفاء(٧)، وهو الأجودُ؛ لأنَّه يرجع إلى المعنى الأولِ، أي: فلا يخاف الله عاقبةَ إهلاكهم. الباقون بالواو، وهي أشبهُ بالمعنى الثاني، أي: ولا يخافُ الكافر عاقبةَ ما صنع. ورَوَى ابنُ وَهْبٍ وابنُ القاسم عن مالكٍ قالا: أخرج إلينا مالكٌ مصحفاً لجدِّه، وزعم أنه كتبه في أيامِ عُثمانَ بنِ عفان حين

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٩ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٥١-٤٥٢ .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٤)، والترمذي (٤٩٧)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٩٤ من حديث سمرة بن جندب بلفظ: «مَن توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومَن اغتسل فالغسل أفضل» وقد سلف بهذا اللفظ عند تفسير الآية (٨) من سورة الجمعة في المسألة العاشرة.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٥٢-٤٥٣ عن الضحاك والسدي.

(٥) يعني: وهو لا يخاف عقباها. معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٣ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٨٥ .

(٧) السبعة ص٦٨٩ ، والتيسير ص٢٢٣ .

كتب المصاحف، وفيه: «ولا يخاف» بالواو[1]. وكذا هي في مصاحفِ أهلِ مكةَ والعراقيين بالواو، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، اتّباعاً لمصحفهم.

تفسير سورة والشمس وضحاها

وهى مكية .

تقدم حديث جابر الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أى : وضوئها . وقال قتادة : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾: النهار كله .

قال ابن جرير : والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار [١] .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ : قال مجاهد : تبعها . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ قال : يتلو النهار. وقال قتادة : ﴿ إِذَا تَلاهَا ﴾ ليلة الهلال ،إذا سقطت الشمس رؤى الهلال .

وقال ابن زيد : هو يتلوها فى النصف الأول من الشهر ، ثم هى تتلوه . وهو يتقدمها فى النصف الأخير من الشهر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : إذا تلاها ليلة القدر .

وقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ : قال مجاهد : أضاء . وقال قتادة : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ : إذا غشيها النهار .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : والنهار إذا جلا الظلمة ، لدلالة الكلام عليها .

قلت : ولو أن هذا القائل تأول [ذلك] [٢] بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ أى : البسيطة ، لكان أولى ، ولصح [تأويله فى] [٣] قول الله [٤] : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ، فكان أجود وأقوى ، والله أعلم . ولهذا قال مجاهد : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ إنه كقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل : ٢] .

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٣٣) .
(٢، ٣) زيادة من م ، أ .
(٤) فى م ، أ : « قوله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

وأما ابن جرير فاختار عود الضمير فى ذلك كله على الشمس ، لجريان ذكرها . وقالوا فى قوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يعنى : إذا يغشى الشمس حين تغيب ، فتظلم الآفاق .

وقال بَقِيَّة بن الوليد ، عن صفوان ، حدثنى يزيد بن ذى حمامة [١] قال : إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : غشى عبادى خلقى العظيم ، فالليل يهابه ، والذى خلقه أحق أن يهاب . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ : يحتمل أن تكون « ما » هاهنا مصدرية ، بمعنى : والسماء وبنائها . وهو قول قتادة ، ويحتمل أن تكون بمعنى « مَن » يعنى : والسماء وبانيها . وهو قول مجاهد ، وكلاهما متلازم ، والبناء هو الرفع ، كقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أى : بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

وهكذا قوله : ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ : قال مجاهد : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : دحاها . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿وَمَا طَحَاهَا ﴾ أى : خلق فيها .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿طَحَاهَا ﴾ : قسمها .

وقال مجاهد ، وقتادة والضحاك ، والسُّدِّى ، والثورى ، وأبو صالح ،وابن زيد :﴿ طَحَاهَا ﴾: بسطها .

وهذا أشهر الأقوال ، وعليه الأكثر من المفسرين ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، قال الجوهرى: طحوته مثل دحوته ، أى : بسطته .

وقوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أى : خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] . وقال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

أخرجاه من رواية أبى هريرة [٢] .

وفى صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعى ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » [٣] .

وقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أى : فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أى : بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها .

قال ابن عباس : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ : بين لها الخير والشر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة، والضحاك ، والثورى .

(١) فى أ : « ذى حماية » .
(٢) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال سعيد بن جبير : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا صفوان بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا : حدثنا عَزْرَة بن ثابت ، حدثنى يحيى بن عقيل ، عن يحيى بن يَعْمَر ، عن أبى الأسود الدّيلى (١) قال : قال لى عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدَر قد سبق ، أو فيما يُستَقبَلُون مما أتاهم به نبيهم ﷺ ، وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضى (٢) عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديداً ، قال : قلت له : ليس شيء إلا وهو خَلقُه ومِلْك يَده ، لا يسألُ عما يفعل وهم يسألون . قال : سددك الله ، إنما سألت لأخبر (٣) عقلك، إن رجلا من مُزَينة ــ أو جهينة ــ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدر قد سبق ، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ، وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال : « بل شيء قد قضى (٤) عليهم » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يُهَيِّئه لها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ » .

رواه أحمد ومسلم ، من حديث عَزْرَة بن ثابت به (٥) .

وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ : يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى نفسه ، أى : بطاعة الله ــ كما قال قتادة ــ وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . ويُروَى نحوه عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وكقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ ، ١٥] .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أى : دسسها ، أى : أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهُدَى ، حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل .

وقد يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دَسَّى الله نفسه ، كما قال (٦) العوفى وعلى بن أبى طلحة ، عن ابن عباس .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى وأبو زُرْعَة قالا : حدثنا سهل (٧) بن عثمان ، حدثنا أبو مالك ــ يعنى عمرو بن هشام ــ عن جُوَيبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قول الله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ قال النبى ﷺ : « أفلحت نفس زكاها الله » (٨) .

ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى مالك ، به . وجويبر [هذا] (٩) : هو ابن سعيد ، متروك الحديث ، والضحاك لم يلق ابن عباس .

---

(١) فى أ : « الديلمى » . (٢) فى أ : « شيء قد قضى » . (٣) فى م : « إنما سألتك لأختبر » .
(٤) فى م : « قضى الله » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٣٥) والمسند (٤/ ٤٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٠) .
(٦) فى م : « كما قاله » . (٧) فى أ : « سهيل » .
(٨) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٤٦٠٠) من طريق جويبر به .
(٩) زيادة من م .

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال الطبراني :حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وقف، ثم قال: «اللهم آت نفسى تقواها، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها »[1] .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يعقوب بن حميد المدنى ، حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموى ، حدثنا مَعْن بن محمد الغفارى ، عن حنظلة بن على الأسلمى ، عن أبى هريرة قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » [2] . لم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، عن نافع ــ يعنى ابن عمر ــ عن صالح بن سُعَيد ، عن عائشة : أنها فَقَدت النبى ﷺ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوقعت [3] عليه وهو ساجد ، وهو يقول : « رب ، أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » [4] تفرد به .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا عاصم الأحول ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم ، إنى أعوذ بك من العجز والكَسَل والهرم ، والجُبن والبخل وعذاب القبر . اللهم ، آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ، إنى أعوذ بك من قَلْب لا يخشع ، ومن نَفْس لا تشبع ، وعِلْم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن .

رواه مسلم من حديث أبى معاوية ، عن عاصم الأحول ، عن عبد الله بن الحارث ــ وأبى عثمان النهدى ، عن زيد بن أرقم ، به [5] .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى .

وقال محمد بن كعب : ﴿ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى : بأجمعها .

والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فأعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به

---

(١) المعجم الكبير (١١/١٠٦) وزاد : « عن عمرو بن دينار وعطاء بن أبى رباح » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٣٨) : « إسناد حسن ».

(٢) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٣١٨) عن يعقوب بن حميد به .

(٣) فى م : « فوثبت » .

(٤) المسند (٦/٢٠٩) .

(٥) المسند (٤/ ٣٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٢) .

www.besturdubooks.wordpress.com

رسولهم من الهدى واليقين .

﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أى : أشقى القبيلة ، هو قُدَار بن سالف عاقرُ الناقة ، وهو أحيمر ثمود ، وهو الذى قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر:٢٩] . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم، شريفاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا ابن نمير ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : « ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه ، مثل زمعة » .

ورواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى صفة النار ، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننهما (١) ، وكذا ابن جرير وابن أبى حاتم [من طرق] (٢) عن هشام بن عروة ، به (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى يزيد بن محمد بن خُثَيم (٤) ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن محمد بن خُثَيم (٥) أبى يزيد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟» . قال : بلى : قال : « رجلان ؛ أحيمر ثمود الذى عَقَر الناقة ، والذى يضربك يا علىّ عَلَى هذا ـ يعنى قَرنه ـ حتى تبتل منه هذه » يعنى : لحيته (٦) .

وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعنى : صالحاً ، عليه السلام : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أى : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم . قال الله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ ﴾ أى: غضب عليهم ، فدمّر عليهم ، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء .

قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ،وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم فى عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم (٧) فسواها .

وقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ : وقرئ : « فلا يخاف عقباها » .

---

(١) فى م : « من سننيهما » .

(٢) زيادة من م .

(٣) المسند (٤/١٧) وصحيح البخارى برقم (٤٩٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٥) وتفسير الطبرى (٣٠/١٣٧) .

(٤،٥) فى أ : « خيثم » .

(٦) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (١/ ٧١) عن إبراهيم بن موسى به ، ورواه أبو نعيم فى الدلائل (ص٤٨٥) من طريق محمد بن سلمة ، عن ابن إسحاق به ، وقال البخارى : « هذا إسناد لا يعرف سماع يزيد من محمد ولا محمد بن كعب من ابن خثيم ولا ابن خثيم من عمار » .

(٧) فى م ، أ : « بذنبهم » .

www.besturdubooks.wordpress.com

قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وغيرهم .

وقال الضحاك والسدى : ﴿ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أى : لم يخف [1] الذى عقرها عاقبة ما صنع .

والقول الأول أولى ؛ لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

آخر تفسير « والشمس وضحاها »

(١) فى أ : « لم يخف الله » .

www.besturdubooks.wordpress.com

٩١ ــ سورة الشمس

(مكية وهي خمس عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ ٩١ الشمس

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ ٩١ الشمس

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ ٩١ الشمس

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ ٩١ الشمس

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ ٩١ الشمس

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ ٩١ الشمس

أطبقته وأغلقته وقرىء موصدة بغير همزة من أوصدته . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة البلد أعطاه الله تعالى الأمان من غضبه يوم القيامة .

﴿ سورة الشمس مكية وآيها خمس عشرة ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (والشمس وضحاها) أى ضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها وقيل الضحوة ١
ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك والضحاء بالفتح والمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف (والقمر إذا ٢
تلاها) بأن طلع بعد غروبها وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها وقيل إذا تلاها فى الاستدارة وكمال النور
(والنهار إذا جلاها) أى جلى الشمس فإنها تتجلى عند انبساط النهار فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه ٣
أو جلى الظلمة أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها (والليل إذا يغشاها) أى الشمس فيغطى ٤
ضوءها أو الآفاق أو الأرض وحيث كانت الواوات العاطفة نوائب للواو الأولى القسمية القائمة
مقام الفعل والباء سادة مسدهما معاً فى قولك أقسم بالله حققن أن يعملن عمل الفعل والجار جميعاً كما
تقول ضرب زيد عمراً وبكر خالداً (والسماء وما بناها) أى ومن بناها وإيثار ما على من لإرادة الوصفية ٥
تفخيماً كأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها وجعلها مصدرية مخل بالنظم الكريم وكذا الكلام
فى قوله تعالى (والأرض وما طحاها) أى بسطها من كل جانب كدحاها . ٦

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ٩١ الشمس

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ٩١ الشمس

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ٩١ الشمس

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ٩١ الشمس

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ٩١ الشمس

إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ٩١ الشمس

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ ٩١ الشمس

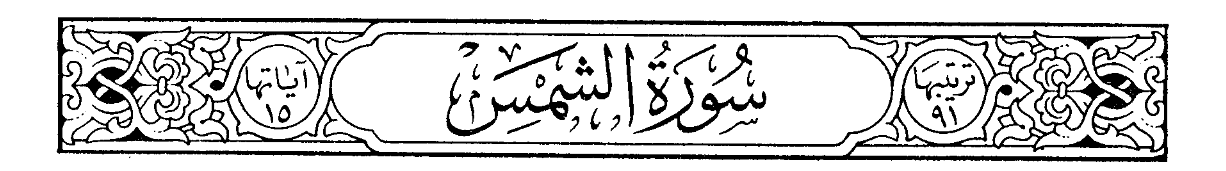
---

٧ (ونفس وما سواها) أى أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالاتها والتنكير للتفخيم على أن المراد نفس
٨ آدم عليه السلام أو للتكثير وهو الأنسب للجواب (فألهمها فجورها وتقواها) أى أفهمها إياهما
وعرفها حالهما من الحسن والقبح وما يؤدى إليه كل منهما ومكنها من اختيار أيهما شاءت وتقديم
٩ الفجور لمراعاة الفواصل (قد أفلح من زكاها) أى فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنماها
١٠ وأعلاها بالتقوى وهو جواب القسم وحذف اللام لطول الكلام وتكرير قد فى قوله تعالى (وقد
خاب من دساها) لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيذان بتعلق القسم به أيضاً أصالة أى خسر
من نقصها وأخفاها بالفجور وأصل دسى دسس كتقضى وتقضض وقيل هو كلام تابع لقوله تعالى
١١ فألهمها فجورها وتقواها بطريق الاستطراد وإنما الجواب ما حذف تعويلا على دلالة قوله تعالى (كذبت
ثمود بطغواها) عليه كأنه قيل ليدمدمن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام وهو على الأول استئناف وارد لتقرير مضمون
قوله تعالى وقد خاب من دساها والطغوى بالفتح الطيغان والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب
طغيانها كما تقول ظلمنى بجراءته على الله تعالى أو صلة للتكذيب أى كذبت بما أوعدت به من العذاب
ذى الطغوى كقوله تعالى فأهلكوا بالطاغية وقرىء بطغواها بضم الطاء وهو أيضاً مصدر كالرجعى
١٢ (إذ انبعث أشقاها) منصوب بكذبت أو بالطغوى أى حين قام أشقى ثمود وهو قدار بن سالف أو
هو ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء فإن أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد
١٣ والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل فى الرضا به (فقال
* لهم) أى لثمود (رسول الله) أى صالح عليه السلام عبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته
* وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم فى الطغيان وهو السر فى إضافة الناقة إلى الله تعالى فى قوله تعالى (ناقة الله)

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ ٩١ الشمس

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ٩١ الشمس

١٤ أى ذروا ناقة الله (وسقياها) ولا تذودوها عنها فى نوبتها (فكذبوه) أى فى وعيده بقوله تعالى
ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم وقد جوز أن يكون ضمير لهم للأشقين ولا يلائمه ذكر سقياها
* (فعقروها) أى الأشقى والجمع على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله وقال قتادة بلغنا أنه لم يعقرها حتى
تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان أفضل الناس
* (فدمدم عليهم ربهم) فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمدمة إذا ألبسها الشحم (بذنبهم)
بسبب ذنبهم المحكى والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب
* (فسواها) أى الدمدمة بينهم لم يفلت منهم أحد من صغير وكبير أو فسوى ثمود بالأرض أو سواها
١٥ فى الهلاك (ولا يخاف عقباها) أى عاقبتها وتبعتها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقى بعض الإبقاء
وذلك أنه تعالى لا يفعل فعلا إلا بحق وكل من فعل بحق فإنه لا يخاف عاقبة فعله وإن كان من شأنه الخوف
والواو للحال أو للإستئناف وقرىء فلا يخاف وقرىء لم يخف . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شىء طلعت عليه الشمس والقمر .



مكية بلا خلاف وآيها ست عشرة آية في المكي والمدني الأول وخمس عشرة في الباقية. ولما ختم سبحانه السورة المتقدمة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أعاد جل شأنه في هذه السورة الفريقين على سبيل الفذلكة بقوله سبحانه ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وفي هذه ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس: ٨] وهو كالبيان لقوله تعالى في الأولى ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] على أول التفسيرين وختم سبحانه الأولى بشيء من أحوال الكفرة في الآخرة، وختم جل وعز هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا فقال عز من قائل:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾
وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ
مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا
﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

﴿بِسۡمِ اللهِ الرَّحۡمَنِ الرَّحِيمِ والشمس وضحاها﴾ أي ضوءها كما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس، والمراد إذا أشرقت وقام سلطانها. وقال بعض المحققين: حقيقة الضحى تباعد الشمس عن الأفق الشرقي المرئي وبروزها للناظرين ثم صار حقيقة في وقته، ثم إنه قيل لأول الوقت ضحوة ولما يليه ضحى ولما بعده إلى قريب الزوال ضحاء بالفتح والمد، فإذا أضيف إلى الشمس فهو مجاز عن إشراقها كما هنا، ونقل عن المبرد أن الضحى مشتق من الضح وهو نور الشمس والألف مقلوبة من الحاء الثانية وكذلك الواو من ضحوة مقلوبة منها، وتعقبه أبو حيان بقوله: لعله مختلق عليه لأن المبرد أجلّ من أن يذهب إلى هذا وهذان مادتان مختلفتان لا تشتق إحداهما من أخرى. وأجيب بأنه لم يرد الاشتقاق الصغير ولا يخفى حاله على الصغير والكبير. وعن مقاتل أن ضحاها حرها وهو تفسير باللازم وعن مقاتل المراد به النهار كله وفيه أنه تعالى أقسم به بعيد ذلك **﴿والقَمَرِ إذا تَلاها﴾** أي تبعها فقيل باعتبار طلوعه وطلوعها أي إذا تلا طلوعه طلوعها بأن طلع من

الأفق الشرقي بعد طلوعها وذلك أول الشهر، فإن الشمس إذا طلعت من الأفق الشرقي أول النهار يطلع بعدها القمر لكن لا سلطان له فيرى بعد غروبها هلالاً ومناسبة ذلك للقسم به لأنه وصف له بابتداء أمره، فكما أن الضحى كشباب النهار فكذا غرة الشهر كولادته. وقيل باعتبار طلوعه وغروبها أي إذا تلا طلوعه غروبها وذلك في ليلة البدر رابع عشر الشهر فإنه حينئذ في مقابلة الشمس والبعد بينهما نصف دور الفلك فإذا كانت في النصف الفوقاني منه أعني ما يلي رؤوسنا كان القمر في التحتاني منه أعني ما يلي أقدامنا، فإذا غربت طلع من الأفق الشرقي وهو المروي عن قتادة. وقولهم: سُمي بدراً لأنه يسبق طلوعه غروب الشمس فكأنه بدرها بالطلوع لا ينافيه لأنه مبني على التقريب، ومناسبة ذلك للقسم به لأنه وقت ظهور سلطانه فيناسب تعظيم شأنه. وقال ابن زيد: تبعها في الشهر كله ففي النصف الأول تبعها بالطلوع وفي الآخر بالغروب، ومراده ما ذكر في القولين. وقيل: المراد تبعها في الإضاءة بأن طلع وظهر مضيئاً عند غروبها آخذاً من نورها وذلك في النصف الأول من الشهر فإنه فيه يأخذ كل ليلة منه قدراً من النور بخلافه في النصف الثاني وهو مروي عن ابن سلام واختاره الزمخشري. وقال الحسن والفرّاء كما في البحر: أي تبعها في كل وقت لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك، وأنكر بعض الناس ذهاب أحد من السلف إلى أن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس وزعم أنه رأي المنجمين لا غير وما ذكر حجة عليه والحجة عن أصل المسألة أظهر من الشمس وهي اختلاف تشكلاته النورية قرباً وبعداً منها مع ذهاب نوره عند حيلولة الأرض بينه وبينها. وكون الاختلاف لاحتمال أن يكون أحد نصفيه مضيئاً والنصف الآخر غير مضيء وأنه يتحرك على محوره حركة وضعية حتى يرى كل نصف منهما تدريجاً، وكون ذهاب النور عند الحيلولة لاحتمال حيلولة جسم كثيف بيننا وبينه لا نراه أضعف من حبال القمر كما لا يخفى. وقال الزجاج وغيره ﴿تلاها﴾ معناه امتلأ واستدار فكان تابعاً لها في الاستدارة وكمال النور.

﴿والنَّهَارِ إذا جلاها﴾ أي جلى النهار الشمس أي أظهرها فإنها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار ومضى منه مدة، فالإسناد مجازي كالإسناد في نحو صام نهاره. وقيل: الضمير المنصوب يعود على الأرض وقيل على الدنيا والمراد بها وجه الأرض وما عليه، وقيل: يعود على الظلمة وجلاها حينئذ بمعنى أزالها وعدم ذكر المرجع على هذه الأقوال للعلم به والأول أولى الذكر المرجع واتساق الضمائر. وجوز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر في ﴿جلاها﴾ عليه عائداً على الله عز وجل كأنه قيل والنهار إذا جل الله تعالى الشمس فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار في أكمل حالاته وهو كما ترى ﴿والَّيْـلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي الشمس فيغطي ضوءها والإسناد كما مر. وقيل أي الأرض وقيل أي الدنيا. وجيء بالمضارع هنا دون الماضي كما في السابق بأن يقال إذا غشيها، قال أبو حيان: رعاية للفاصلة ولم يقل غشاها لأنه يحتاج إلى حذف أحد المفعولين لتعديه إليهما فإنه يقال: غشيته كذا كما قال الراغب كذا قيل. وقال بعض الأجلّة: جيء بالمضارع للتنبيه على استواء الأزمنة عنده تعالى شأنه. وقال الخفاجي: الأول أن يقال المراد بالليل الظلمة الحادثة بعدم الضوء لا العدم الأصلي والظلمة الأصلية فإن هذه أظهر في الدلالة على القدرة وهي مستقبلة بالنسبة لما قبلها فلا بد من تغيير التعبير ليدل على المراد. واستصعب الزمخشري الأمر في نصب ﴿إذا﴾ بأن ما سوى الواو الأولى إن كانت عاطفة لزم العطف على معمولي عاملين مختلفين كعطف النهار مثلاً على الشمس المعمول لحرف القسم، وعطف الظرف أعني ﴿إذا﴾ في ﴿إذا جلاها﴾ على نظيرتها في ﴿إذا تلاها﴾ المعمولة لفعل القسم وإن كانت

قسمية لزم اجتماع المقسمات المتعددة على جواب واحد وقد استكرهه الخليل وسيبويه وأجاب باختيار الشق الأول ونفي ما لزمه، فقال: إن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلياً فكان لها شأن خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل تارة وأضمر أخرى، فكانت الواو قائمة مقام فعل القسم وباؤه سادة مسدهما معاً والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو فهي عاملة الجر وعاملة النصب، فالعطف من قبيل العطف على معمولي عامل واحد وهذا كما تقول: ضرب زيد عمراً وبكر خالداً فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها انتهى. وأنت تعلم أن أول الواوات العواطف ها هنا ليس معها ما تعمل فيه النصب فلعله أراد أنها تعمل ذلك إن كان هناك منصوب أو هي عاملة باعتبار أن معنى ﴿**والشمس وضحاها**﴾ والشمس وضوءها إذا أشرقت وفيه أيضاً أنه لم يقل أحد بأن الحروف العواطف عوامل. وأيضاً الإشكال مبني على امتناع العطف على معمولي عاملين مطلقاً حتى لو جوّز مطلقاً أو بشرط كون المعطوف مجروراً على ما ذهب إليه جمع كما في قولك: في الدار زيد والحجرة عمرو لم يكن إشكال، وأيضاً هو مبني على قبول هذا الاستكراه وعدم إمكان التخلص من الاجتماع بتقدير جواب لكل من المقسمات حتى إذا لم يقبل أو قبل وقدر لكل جواب لم يبق إشكال. وأيضاً هو مبني على أن إذا ظرفية وهو ممنوع لجواز أن تكون قد تجردت عن الظرفية وحينئذ تكون بدلاً مما بعد الواو كما قيل في قوله:

وبعد غد يا لهف نفسي من غد ... إذا راح أصحابي ولست برائح

أن إذا بدل من غد وعلى تسليم أنها ظرفية يجوز أن يقدر مع كل مضاف تتعلق به، كأن يقدر وتلو القمر إذا تلاها، وتجلية النهار إذا جلاها، وغشيان الليل إذا يغشاها أو تجعل متعلقة بمحذوف وقع حالاً مقدرة مما تليه أي أقسم بالقمر كائناً إذا تلاها، وبالليل كائناً إذا جلاها كما زعمه بعضهم وفيه بحث وأيضاً يردّ على الزمخشري مثل قوله تعالى ﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس﴾ [التكوير: ١٧، ١٨] لأن الواو هنالك عاطفة وقد تقدم صريح فعل القسم كما ذكره الشيخ ابن الحاجب على أن التحقيق كما قال بعض المحققين أن الظرف ليس معمولاً لفعل القسم لفساد المعنى إذ التقييد بالزمان غير مراد حالاً كان أو استقبالاً وإنما هو معمول مضاف مقدر من نحو العظمة لأن الإقسام بالشيء إعظام له فكأنه أقسم بعظمة زمان كذا، وما قيل عليه من أن إقسامه تعالى بشيء مستعار لإظهار عظمته وإبانة شرفه فيجوز تقييده باعتبار جزء المعنى المراد يعني الإظهار، وأيضاً إذا كان الإقسام إعظاماً لغا تقديره فلو سلم فالاستعارة إما تبعية أو تمثيلية، وعلى كل حال فليس ثمت ما يكون متعلقاً بحسب الصناعة والتقدير ليتعلق به وليظهر ما أريد منه مؤكداً فلا لغوية ﴿**وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا**﴾ أي ومن بناها وإيثار ما على من لإرادة الوصفية تفخيماً على ما تقدم في ﴿وما ولد﴾ [البلد: ٣] كأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذي بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤهما والمراد به إيجادها بحيث تدل على ذلك ويستدل بها عليه وهو أولى من تفسيره ببانيها لإشعاره بالمراد من البناء. وكذا الكلام في قوله تعالى ﴿**وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**﴾ أي بسطها من كل جانب ووطأها كدحاها، ويكون طحا بمعنى ذهب كقول علقمة:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب

وبمعنى أشرف وارتفع ومن أيمانهم لا والقمر الطاحي. ويقال: طحا يطحو طحواً وطحى يطحي طحياً. وقوله سبحانه ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ أي أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالها وذلك بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة

والباطنة والتنكير للتكثير، وقيل للتفخيم على أن المراد بالنفس آدم عليه السلام والأول أنسب بجواب القسم الآتي، ومن ذهب إلى ذلك جعله من الاستخدام. وذهب الفراء والزجاج والمبرد وقتادة وغيرهم إلى أن ﴿ما﴾ في المواضع الثلاثة مصدرية أي وبنائها وطحوها وتسويتها. وتعقبه الزمخشري بأنه ليس بالوجه لقوله تعالى ﴿فألهَمَها فُجُورَها وَتقْوَاهَا﴾ وما يؤدي إليه من فساد النظم وذلك على ما في الحواشي لما يلزم من عطف الفعل على الاسم وأنه لا يكون له فاعل لا ظاهر وهو ظاهر ولا مضمر لعدم مرجعه. واعترض بأن الأخير منتقض بالأفعال السابقة أعني ﴿بناها﴾ و ﴿طحاها﴾ ﴿سواها﴾ على أن دلالة السياق كافية في صحة الإضمار، وأما الأول ففيه أن عطف الفعل على الاسم ليس بفاسد وإن كان خلاف الظاهر على أنه على ما بعد ما كأنه قيل: ونفس وتسويتها فإلهامها فجورها وتقواها. واعترض هذا بأن الفاء يدل على الترتيب من غير مهلة، والتسوية قبل نفخ الروح والإلهام بعد البلوغ وأجيب بأن التسوية تعديل الأعضاء والقوى ومنها المفكرة والإلهام عبارة عن بيان كيفية استعمالها في النجدين في هذا المحل وهو غير مفارق عنه منذ سوى نعم يزداد بحسب ازدياد القوى كيفية لا وجوداً على أن المهلة في نحوها عرفي وقد يعد متعقباً دون تراخ ثم إنه مشترك الإلزام ولا معنى لقول الطيبي النظم السري يوجب موافقة القرائن فلا يجوز، ونفس وتسويتها فألهمها الله فهي حاصلة وإنما ذلك بناء على توهم أن قوله تعالى ﴿فألهمها﴾ جملة وبالجملة لا يلوح فساد هذا الوجه. وأبى القاضي عبد الجبار إلاّ المصدرية دون الموصولية قال لما يلزم منها تقديم الإقسام بغير الله تعالى على إقسامه سبحانه بنفسه عز وجل. وأجاب عنه الإمام بأن أعظم المحسوسات الشمس فذكرها الله تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة ووصفها جل وعلا بصفات ثلاث ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته سبحانه كما يليق به جل جلاله ولا ينازعه الحس فكان ذلك طريقاً إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بيداء أوج كبريائه جل شأنه، وجوز أن تكون ما عبارة عن الأمر الذي له بنيت السماء وطحيت الأرض وسويت النفس من الحكم والمصالح التي لا تحصى، ويكون إسناد الأفعال إليها مجازاً، وفاعل ألهمها يجوز أن يكون ذلك أمر ويكون الإسناد مجازاً أيضاً وهو كما ترى والفجور والتقوى على ما أخرج عبد بن حميد وغيره عن الضحاك المعصية والطاعة مطلقاً قلبيين كانا أو قالبيين وإلهامهما النفس على ما أخرج هو وابن جرير وجماعة عن مجاهد تعريفهما إياها بحيث تميز رشدها من ضلالها، وروي ذلك عن ابن عباس كما في البحر، وقريب منه قول ابن زيد ﴿ألهمها فجورها وتقواها﴾ بيّنهما لها. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهما نحوه عن قتادة والآية على ذلك نظير قوله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] وقدم الفجور على التقوى لأن إلهامه بهذا المعنى من مبادىء تجنبه وهو تخلية والتخلية مقدمة على التحلية وقيل: قدم مراعاة للفواصل وأضيفا إلى ضمير النفس قيل إشارة إلى أن الملهم للنفس فجور وتقوى قد استعدت لهما فهما لها بحكم الاستعداد، وقيل رعاية للفواصل أيضاً. وقوله تعالى ﴿قدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ جواب القسم على ما أخرجه الجماعة عن قتادة وإليه ذهب الزجاج وغيره، وحذف اللام كثير لا سيما عند طول الكلام المقتضى للتخفيف أو لسدّه مسدها. وفاعل ﴿زكاها﴾ ضمير من والضمير المنصوب للنفس وكذا في قوله تعالى ﴿وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها﴾ وتكرير ﴿قد﴾ فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيذان بتعلق القسم به أصالة، والتزكية التنمية والتدسية الإخفاء وأصل دسى دسس فأبدل من ثالث التماثلات ياء ثم أبدلت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، وأطلق بعضهم فقال: أبدل من ذلك حرف علة كما قالوا في تقضض تقضى ودسس مبالغة في دس بمعنى أخفى قال الشاعر:

ودسست عمراً في التراب فأصبحت حلائله منه أرامل ضيّعا

وفي الكشاف: التزكية الإنماء والإعلاء، والتدسية النقص والإخفاء أي لقد فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنمى نفسه وأعلاها بالتقوى علماً وعملاً ولقد خسر من نقصها وأخفاها بالفجور جهلاً وفسوقاً. وجوز أن تفسر التزكية بالتطهير من دنس الهيولى والتدسية بالإخفاء فيه والتلوث به وأيًّا ما كان ففي الوعد والوعيد المذكورين مع إقسامه تعالى عليهما بما أقسم به مما يدل على العلم بوجوده تعالى ووجوب ذاته سبحانه وكمال صفاته عز وجل ويذكر عظائم آلائه وجلائل نعمائه جلا وعلا من اللطف بعباده ما لا يخفى. وقوله تعالى ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا**﴾ استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى ﴿**وقد خاب من دساها**﴾ وجعل الزمخشري قوله تعالى ﴿**قد أفلح**﴾ الخ تابعاً لقوله تعالى ﴿**فألهمها**﴾ الخ عاى سبيل الاستطراد وأبى أن يكون جواب القسم وجعل الجواب محذوفاً مدلولاً عليه بهذا كأنه قيل: ليدمن من الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام، فقيل: إن ذلك لما يلزم من حذف اللام وأنه لا يليق بالنظم المعجز أن يجعل أدنى الكمالين أعني التزكية لاختصاصها بالقوة العملية المقصودة بالإقسام ويعرض عن أعلاهما أعني التحلية بالعقائد اليقينية التي هي لب الألباب وزبدة ما مخضته الأحقاب، ولو سلم عدم الاختصاص فهي مقدمة التحلية في البابين وأما حذف المقسم عليه فكثير شائع لا سيما في الكتاب العزيز. وتعقب بأن حذف اللام كثير لا سيما مع الطول وهو أسهل من حذف الجملة بتمامها وقد ذكره في ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [المؤمنون: ١] فما حدا مما بدا وأن التزكية مراداً بها الإنماء لا اختصاص لها وليست مقدمة بل مقصودة بالذات ولو سلم فلا مانع من الاعتناء ببعض المقدمات أحياناً لتوقف المقاصد عليها فتدبر.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال في ﴿**فألهمها**﴾ ألزمها وأخرجه الديلمي عن أنس مرفوعاً وعلى ذلك قال الواحدي وصاحب المطلع الإلهام أن يوقع في القلب التوفيق والخذلان فإذا أوقع سبحانه في قلب عبد شيئاً منهما فقد ألزمه سبحانه ذلك الشيء ويزيد ذلك قوة ما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾» ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لقدرة العبد واختياره مدخل في الفجور والتقوى بالكلية وإن قيل إن ما له إلى خلق الله تعالى إياهما ليقال يأباه حينئذ قوله تعالى ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ الخ حيث جعل فيه العبد فاعل التزكية بالتقوى والتدسية بالفجور لأن الإسناد يقتضي قيام المسند ويكفي فيه المدخلية المذكورة ولا يتوقف صحة الإسناد حقيقة إلى العبد على كون فعله الإيجاد فالاستدلال بهذا الإسناد على كونه متمكناً من اختيار ما شاء من الفجور والتقوى وإيجاده إياه بقدرة مستقلة فيه على خلاف ما يقوله الجماعة ليس بشيء على أن الضمير المستتر في ﴿**زكاها**﴾ وكذا في ﴿**دساها**﴾ لله عز وجل والبارز لمن بتأويل النفس. فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك يقول الله تعالى قد أفلح من زكى الله تعالى نفسه فهداه وقد خاب من دسى الله تعالى نفسه فأضله. بل أخرج عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول في قوله تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ الآية: «أفلحت نفس زكاها الله تعالى وخابت نفس خيبها الله من كل خير». وأخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة ومسلم والنسائي عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها». وفي رواية الطبراني وغيره عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام إذا تلا هذه الآية وقف وقال ذلك. ولهذه الأخبار ونحوها قال بعضهم: إن ذلك هو المرجح، ورجحه صاحب الانتصاف بأن الضمائر في ﴿والسماء وما بناها﴾ الخ تكون عليه متسقة عائدة كلها إلى الله تعالى وبأن قوله تعالى ﴿قد أفلح من تزكى﴾ [الأعلى: ١٤] أوفق به لأن تزكى مطاوع زكى فيكون المعنى قد أفلح من زكاه الله تعالى فتزكى، ومع هذا كله لا ينبغي أن ينكر أن المعنى السابق هو السابق إلى الذهن وما ذكر من الأخبار ليس نصاً في تعيين المعنى الآخر، نعم هو نص في تكذيب الزمخشري في زعمه أنه من تعكيس القدرية يعني بهم أهل السنة والجماعة فتأمل. والطغوى مصدر من الطغيان بمعنى تجاوز الحد في العصيان فصلوا بين الاسم والصفة في فعلي من بنات الياء بأن قلبوا الياء واواً في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا في الصفة امرأة صدياً وخزياً وفي الاسم تقوى وطغوى كذا في الكشاف وغيره وكلام الراغب يدل على أن طغى وأوى ويأتي حيث قال: يقال طغوت وطغيت طغواناً وطغياناً فلا تغفل. والباء عند الجمهور للسببية أي فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول: ظلمني الخبيث بجراءته على الله تعالى. وجعلها الزمخشري للاستعانة والأمر سهل، وجوز أن تكون صلة للتكذيب على معنى كذبت بما أوعدت به في لسان نبيها من العذاب ذي الطغوى أي التجاوز عن الحد والزيادة، ويوصف العذاب بالطغيان بهذا المعنى كما في قوله تعالى ﴿فأهلكوا بالطاغية﴾ [الحاقة: ٥] وقد يوصف بالطغوي مبالغة كما يوصف بسائر المصادر لذلك فلا يكون هناك مضاف محذوف. وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة «طُغوَاهَا» بضم الطاء وهو مصدر أيضاً كالرجعى والحسنى في المصادر إلا أنه قيل كان القياس الطغيا كالسقيا لأن فُعلى بالضم لا يفرق فيه بين الاسم والصفة كأنهم شذوا فيه فقلبوا الياء واواً، وأنت تعلم أن الواو عند من يقول طغوت أصلية.

﴿إذ انبَعَثَ﴾ متعلق بكذبت أو بطغوى و ﴿انبعث﴾ مطاوع بعثه بمعنى أرسله والمراد إذ ذهب لعقر الناقة ﴿أشقاهَا﴾ أي أشقى ثمود وهو قُدار بن سالف أو هو ومن تصدى معه لعقرها من الأشقياء اثنان على ما قال الفراء أو أكثر، فإن أفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضا به ولخبائث غير ذلك يعلمها الله تعالى فيهم هي فوق خبائث من عداهم ﴿فقالَ لَهُمْ﴾ أي لثمود أو لأشقاها على ما قيل بناء أن المراد به جمع ولا يأباه ﴿وسقياها﴾ كما لا يخفى ﴿رَسُول الله﴾ هو صالح عليه السلام وعبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان وهو السر في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله سبحانه ﴿نَاقَةَ اللهِ﴾ وهو نصب على التحذير وشرطه ليس تكرير المحذر منه أو كونه محذراً بما بعده فقط ليقال هو منصوب بتقدير ذروا أو احذروا لا على التحذير، بلى شرطه ذاك أو العطف عليه كما هنا على ما نص عليه مكي والكلام على حذف مضاف أي احذروا عقر ناقة الله أو المعنى على ذلك وإن لم يقدر في نظم الكلام وجوز أن يكون التقدير عظموا أو الزموا ناقة الله وليس بشيء ﴿وَسقاهَا﴾ أي واحذروا سقياها فلا تتعرضوا بمنعها عنها في نوبتها ولا تستأثروا بها عليها وقيل الواو للمعية والمراد ذروا ناقة الله مع سقياها ولا تحولوا بينهما وهو كما ترى وقرأ زيد بن علي ناقة الله بالرفع فقيل أي همكم ناقة الله وسقياها فلا تعقروها ولا تستأثروا بالسقيا عليها

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي في وعيده إياهم كما حكي عنه بقوله تعالى ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ [الأعراف: ٧٣﴾ فالتكذيب لخبر مقدر ويجوز أن يكون لخبر تضمنه الأمر التحذيري السابق وهو الخبر بحلول العذاب إن فعلوا ما حذرهم منه وقيل: إن ما قاله لهم من الأمر قاله ناقلاً له عن الله تعالى كما يؤذن بذلك التعبير عنه عليه السلام بعنوان الرسالة، ومآل ذلك أنه قال لهم إنه قال الله تعالى ناقة الله وسقياها فالتكذيب لذلك وهو وجه لا بأس به ﴿فعَقَرُوهَا﴾ أي فنحروها أو فقتلوها وضمير الجمع للأشقى وجمعه على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله. قال قتادة: بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ فأطبق عليهم العذاب وقالوا: دمدم عليه القبر أي أطبقه وهو مما تكرر فيه الفاء فوزنه فعفل لا فعلل من قولهم: ناقة مدمومة إذا لبسها الشحم وغطاها. وقال في القاموس: معناه أتمّ العذاب عليهم. وقال مؤرخ: الدمدمة إهلاك باستئصال. وفي الصحاح: دمدمت الشيء ألزقته بالأرض وطحطحته. وقرأ ابن الزبير «فدهدم» بهاء بين الدالين والمعنى كما تقدم ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ بسبب ذنبهم المحكي والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب ﴿فَسَوَّاهَا﴾ الضمير للدمدمة المفهومة من دمدم أي فجعل الدمدمة سواء بينهم أو جعلها عليهم سواء فلم يفلت سبحانه منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً أو هو لثمود والتأنيث باعتبار القبيلة كما في ﴿طغواها﴾ و ﴿أشقاها﴾ والمعنى ما ذكر أيضاً أو فسواها بالأرض ﴿وَلَا يخَافُ﴾ أي الرب عز وجل ﴿عُقْباهَا﴾ أي عاقبتها وتبعتها كما يخاف المعاقبون من الملوك عاقبة ما يفعلونه وتبعته. وهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله جل جلاله والوال للحال أو للاستئناف، وجوز أن يكون ضمير ﴿لا يخاف﴾ للرسول والواو للاستئناف لا غير على ما هو الظاهر، أي ولا يخاف الرسول عقبى هذه الفعلة بهم إذ كان قد أنذرهم وحذرهم. وقال السدّي والضحاك ومقاتل والزجاج وأبو علي: الواو للحال والضمير عائد على ﴿أشقاها﴾ أي انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه وهو أبعد مما قبله بكثير. وقرأ أبيّ والأعرج ونافع وابن عامر «فلا يخاف» بالفاء وقرىء «ولم يخف» بواو وفعل مجزوم بلم. هذا واختلف في هؤلاء القوم هل آمنوا ثم كفروا أو لم يؤمنوا أصلاً فالجمهور على الثاني وذهب بعض إلى أنهم آمنوا وبايعوا صالحاً مدة ثم كذبوه وكفروا فأهلكوا بما فصّل في موضع آخر. وقال الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره في فصوصه: إنهم وقوم لوط عليه السلام لا نجاة لهم يوم القيامة بوجه من الوجوه ولم يساو غيرهم من الأمم المكذبة المهلكة في الدنيا كقوم نوح عليه السلام بهم. ولكلامه قدس سره أهل يفهمونه فارجع إليهم في فهمه إن وجدتهم. وذكر بعض أهل التأويل أن ﴿الشمس﴾ إشارة إلى ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى ﴿وضحاها﴾ إشارة إلى الحقيقة المحمدية ﴿والقمر﴾ إشارة إلى ماهية الممكن المستفيدة للوجود من شمس الذات ﴿والنهار﴾ إشارة إلى العالم بسائر أنواعه الذي ظهرت به صفات جمال الذات وجلاله وكماله ﴿والليل﴾ إشارة إلى العالم بسائر أنواعه الذي ظهرت بر صفات جمال الذات وجلاله وكماله ﴿والليل﴾ إلى وجود ما يشاهد من أنواع الممكنات الساتر في أعين المحجوبين للوجود الحق ﴿والسماء﴾ إشارة إلى عالم العقل ﴿والأرض﴾ إشارة إلى عالم الجسم والنفس معلومة و ﴿ناقة الله﴾ إشارة إلى راحلة الشوق الموصولة إلى سبحانه ﴿وسقياها﴾ إشاره إلى مشربها من عين الذكر والفكر وقال بعض: آخر الشمس إشارة إلى الوجود الحق الذي هو عين الواجب تعالى فهو أظهر من الشمس الله نور السماوات والأرض. وقال شيخ مشايخنا البندنيجي قدس سره:

ظـــاهـــر أنـــت ولـــكـــن لا تـــرى　　　لـعـيـون حـجـبـتـهـا الـنـقـط

﴿وضحاها﴾ إشارة إلى أول التعينات بأي اسم سميته ﴿والقمر﴾ إشارة إلى الأعيان الثابتة المفاضة بالفيض الأقدس أو ﴿والشمس﴾ إشارة إلى الذات ﴿وضحاها﴾ إشارة إلى وجودها والإضافة للتغاير الاعتباري ﴿والقمر﴾ إشارة إلى أول التعينات ﴿والنهار﴾ إشارة إلى الممكنات المفاضة بالفيض المقدس ﴿والليل﴾ إشارة إليها أيضاً باعتبار نظر المحجوبين أو النهار إشارة إلى صفة الجمال والليل إشارة إلى صفة القهر والجلال ﴿والسماء﴾ إشارة إلى عالم اللطافة وذكر النفس بعد مع دخولها في هذا العالم للاعتناء بشأنها ﴿والأرض﴾ إشارة إلى عالم الكثافة و ﴿ناقة الله﴾ إشارة إلى الطريقة ﴿وسقياها﴾ مشربها من عين الشريعة وقيل غير ذلك والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.